الحسن البصري
إماماً وفقيهاً ومتصوفاً

إعداد: الدكتور محمد حمود
رئيس اللجنة الثقافية والاجتماعية
بالجمعية المغربية للتضامن الاسلامي

بسم الله خير الأسماء والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وآله وصحابته الأصفياء.

سنتحدث في هذا الموضوع عن بعض جوانب شخصية الامام الحسن البصري هذه الشخصية الفضفاضة التي لا يمكننا الوفاء بابعادها المتعددة في عجالة كهذه ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله او بعضه، ولهذا اجدني متحيزاً الى الاكتفاء ببعض رؤوس الاقلام وانتقاء بعض المظاهر لشخصية الحسن البصري، آملا ان تتاح الفرصة لي لتحليل المظاهر الاخرى لهذه الشخصية واكتشاف خباياها المتعددة ومناجمها الدفينة.

وقد ارتأيت ان يكون تصميم هذا العرض متضمنا لحياة الحسن البصري الشخصية، وحياته العلمية، كما يتضمن الحديث عن مواعظه وحكمه.

القسم الاول:

من هو الحسن البصري؟

للاجابة عن هذا السؤال العريض اراني مضطرا للحديث عن الفروع التالية:

الفرع الاول: نسبه وصفاته الخلقية والخلقية:

انه الحسن ابن ابي الحسن البصري الانصاري ويكنى بابي سعيد ونعت بالبصري لانه عاش بمدينة البصرة وتوفي بها ونعت بالانصاري لانه كان مولى الانصار - وقد اختلف في من هو مولى والده يسار أهو زيد بن ثابت (ض)- أم جميل بن قطبة أم جابر بن عبد الله، وعلى كل حال فأبو الحسن البصري سبي بميسان من دولة العراق حين فتحها زمن خلافة عمر بن الخطاب (ض) على يد عتبة بن غزوان وكان يدعى قبل اسلامه بفيروز .

أما أم الحسن البصري فاسمها خيرة وكانت مولاة ايضا لأم سلمة (ض) على الراجح وقد تزوجها يسار وهو في الرق وعلى هذا فقد ولد الحسن مملوكا -وقيل ان اسمها صفية بنت الحارث من اهل اليمن- ويقال بانها وزوجها كانا يختلفان الى المسجد لتعليم القرآن للنساء والرجال هو في مقدمته وهي في مؤخرته.

وكان شغل والد الحسن البصري شبيها بما يشتغل به المماليك عادة حيث كان موزعا بين الخدمة والزراعة أما أمه خيرة فقد اشتغلت في خدمة ام سلمة (ض) زوج النبي ﷺ حيث كانت تصحب ولدها لبيوت أمهات المومنين حتى إذا غابت عن ولدها ذات مرة رعته أم سلمة وعللته بثديها إذا بكى إلى حين رجوع أمه، كما كانت خيرة تخرج ولدها إلى أصحاب النبي ﷺ فيدعون له وهو صغير ومن ذلك دعاء عمر بن الخطاب (ض) له بقوله: «اللهم فقهه في الدّين وحببه إلى الناس».

وهكذا كان للبيئة التي تربى فيها الحسن البصري والمجال الذي احتضن طفولته وشبابه أكبر الأثر في تربيته وسلوكه مسلك الزهاد والعلماء ويروى أنه كان له يوم مقتل عثمان أربعة عشر عاما ولِذلك من السهل معرفة ميلاده بمعرفة تاريخ وفاة عثمان (ض) وبالاضافة إلى ذلك

فقد عاش الحسن البصري سنين من عمره في أحضان مكة خارج مسقط رأسه حيث كان أبوه ينتقل إليها قبل أن يستقر بهما المقام بالبصرة في نهاية المطاف.

ولم يفت الحسن البصري أن ينجز أسرة مثالية تتكون من زوجين وثلاثة أبناء أحدهم سعيد وكان يكنى به وثانيهم عبد الله، ويروى الكثير من الفضائل عن السلوك المثالي للحسن البصري وهو يرعى أسرته حيث كانت تهيمن عليه مبادئ التقوى والعفة والورع وإيثار الحلال على الحرام وترك الشبهات مهما يكن حجمها صغيرا أم كبيرا والحب والوفاء لأعضاء أسرته عند السراء والضراء وتدل على ذلك أبلغ دلالة كلمته وهو يفارق أعز إخوته سعيد « الحمد لله الذي لم يجعل الحزن عارا على يعقوب مضيفا «بيئست الدار المفرقة».

وقد اجتمعت للحسن البصري كمالات الجسم ومحاسن الاخلاق ففيما يخص الشق الأول كان جميل الصورة مشهورا بالجمال ومن أجمل أهل البصرة صورة معروفا بذلك مقبولا عند الناس ونجد شهادات معاصريه في هذا الباب كثيرة متواترة نذكر من بينها على سبيل المثال لا الحصر شهادة موسى بن اسماعيل بن عاصم بن يسار الرقاش إذ يقول : أخبرتني أمة الحكم قالت: كان الحسن يجيء الى حطان بن عبد الله الرقاش، فما رأيت شابا قط كان أحسن وجها منه».

وكان يصفر لحيته كل جمعة ويلبس الطيسان ويلبس عمامة سوداء ويصلي في نعليه على السنة ويتختم بيده اليسرى خاتما من الفضة عليه خطوط، وكان ذا شعر طويل يتركه ويحلقه يوم النحر ويحمل عصا في يده وباختصار كان الحسن البصري نموذجا حيا في عظمة البنية وقوة العضلات وكمال التكوين.

وفيما يخص الشق الثاني المتمثل في سجاياه الاخلاقية فقد كان رجلا حزينا يغلب عليه الأسى اكثر مما يستسلم للفرح والضحك والى جانب ذلك كان صاحب هيبة ووقار ومروءة وكرم وسخاء ورفق بالفقراء والاصحاب ويروى عنه كان يبكي ويقول : «ولقد رأيت اقواما يُمسي احدهم ولا يجد عنده الا قوتا فيقول: لا اجعل هذا كله في بطني لاجعل بعضه لله عز وجل» وجعل المال وسيلة لا غاية اذ قال في هذا الموضوع» والله ما اعز احد الدرهم الا ذل» ونتيجة لهذا الموقف من المال ومتاع الدنيا عاش الحسن البصري عفيفا قانعا مستغنيا عن استجداء الناس وتطبيقا كذلك لموقفه هذا من المال كان لا ياخذ اجرا على امتهان القضاء وانما يقضي بين الناس حسبة لله تعالى، وكان يسكن في أحد الأحياء المتواضعة للبصرة حيث يسكن الفقراء والزهاد - إلا أنه لم يكن يحرم نفسه مع ذلك من طيبات الطعام مما أحله

الله فيطعم نفسه بجيده كما يطعم معه أصدقاءه ومحبيه مما يطعم به نفسه، ولم يكن الحسن البصري يبخل باجابة الدعوات للولائم ولم من طرف الأمراء والحكام، وكان يدعو آخر الوليمة بهذا الدعاء «مد الله لكم في العافية وأوسع عليكم في الرزق واستعملكم بالشكر».

وعن شجاعته كان الحسن فارسا مغوارا وقد برهن على ذلك في الغزوات الكثيرة التي شارك فيها ومن بينها ذهابه مع الربيع بن زياد الى خراسان سنة 51 للمحرم.

وأضاف الحسن البصري إلى شجاعته الحربية فصاحة اللسان وعلو كعبه في اللغة العربية رغم انه من الموالي وتعلل فصاحته هذه برضاعته من أم سلمة (ض) حتى اصبح من اجود الخطباء ويشهد له الجاحظ بقوله : فاما الخطب فانا لا نعلم احدا يتقدم الحسن البصري فيها: «وكان له حسٌّ لغوي ونفور من اللحن الى درجة انه كان يستغفر الله اذا عثر بشيء من اللحن ويعده خطيئة وقد استطاع بموْهبته هذه ان يجعل الخطابة وسيلة لبسط آرائه ومبادئه بطريقة جذابة ينجذب الناس لمضامينها وينسحرون لروعتها واسلوبها، كما يستميلهم اخلاص صاحبها وصدقه في القول والفعل وكان يستعين في اسلوبه بالقسم فيضمن خطبه بهذه العبارة» والذي نفس الحسن بيده» ومخاطبة مستمعيه بقوله: «يا ابن آدم» بقدر ما يستعين بالوسائل البلاغية من إطناب وارسال وتفصيل وغيرها كلما كانت الحاجة ماسة الى ذلك.

وعن عبادة الحسن البصري وتدينه فقد حاز القدح المعلَّى وكانت حياته كلها حياة دعوة اذ كان عابدا في علمه، عابدا في معاملته وعابدا في جهاده كما كانت حياته موزعة بين المسجد وبيته فهو يعقد مجلسا علميا في جامع الامير ويضيف اليه مجلسا آخر في بيته وكان يوثر الورع في حديثه قائلا في هذا الصدد : «لولا الميثاق الذي اخذه الله على اهل العلم ما حدثتكم بكثير ما تسألون عنه» وقد حج في حياته مرتين فسئل عن الحج المبرور؟ قال أن ترجع زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة كما كان يداوم على تلاوة القرآن والتأثر لمعانيه ومواعظه الى درجة البكاء.

وقد ارتقى الحسن البصري بعبادته إلى درجة الزهد الإيجابي حيث عد من كبار الزهاد ونموذجا للزهد في عهده الأول قبل ان تدخل عليه مظاهر خادعة ونسك عجمى وقبل ان يصبح اسلوب معيشة وهكذا كان الحسن زاهدا بالمعنى الدقيق لكلمة زهد متمثلا بشخصيته الزاهدة الانبياء والصديقين والصحابة، وقد كثرت معاني الزهد في حياة الحسن أقوالا وخطابة وتطبيقا وممارسة، وفيه يقول صاحب الحلية » ومنهم -اعني من الصوفية- حليف الخوف

والحزن اليف الهم والشجن عديم العزم والوشى ابو سعيد الحسن بن ابي الحسن الفقيه الزاهد المتشمر، العابد كان لفضول الدنيا وزينتها نابذا ولشهرة النفس وتحدثها واقدا»، وفي نفس هذا المعنى توالت الشهادات تَتْرَى من كل من ترجم للحسن البصري، ويعزى زهده هذا لعدة اسباب:

اولا: نفسية الحسن البصري المتميزة فهي نفسية متوازنة صادقة يوافق عمله علمه ويوافق منهجه حكتمه فهو يعايش الدنيا ويقف منها على ضوء فهمه للآخرة كما وكانت نفسيته نفسية المرشد الشغوف والواعظ الرقيق والمربي الحكيم.

وثانيا: تربية الحسن الدينية والعلمية اذ نشأ في أحضان بيوت أصحاب النبي ﷺ وأمهات المومنين ﷺ ويتذكر جيدا ما شاهده من أعمالهم وما سمعه من أقوالهم ويقول عنهم في حديث له: «والله لقد كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي يمشون عليه ما يبالون أشرقت الدنيا ام غربت ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا» كما يتعجب ممن لا تطابق أعمالهم أقوالهم قائلا: لقد ادركت أقواما كانوا آمر الناس بالمعروف وابعدهم عنه وانهى الناس عن المنكر وأوقعهم فيه، فكيف الحياة مع هؤلاء ؟ شاحبا لهذا النفاق مستهجنا لأصحابه، ويقول في أصحاب رسول الله ﷺ ممن اتخذهم مثله الأعلى وقدوته الحسنة: «ظهرت منهم علامات الخير في السماء والسمت والهدى والصدق وخشونة ملابسهم وممشاهم بالتواضع ومنطقهم بالعمل ومطعمهم ومشربهم الطيب من الرزق وخضوعهم بالطاعة لربهم تعالى الى ان يقول حسنت أخلاقهم وهانت مؤونتهم وكفاهم اليسير من دنياهم إلى آخرتهم» اذن فتربية الحسن الدينية المبنية على الكتاب والسنة واقتفاء أثر الصحابة الصالحين أدت به إلى الزهد منهجا لحياته والقناعة باليسير من الرزق واعتبار الدنيا مطية للآخرة - وبهذا جعله الصوفية واحدا من أقطابهم والواقع أن مصطلح الصوفية لم يكن معروفا زمن الحسن البصري كما أن الصوفية المختلطة معناها بكثير من أفكار الشيعة لا تمت بصلة إلى مذهب الحسن البصري الملتزم بالكتاب والسنة واعتمادهما منبعا للاخلاق والزهد والاحسان وفقه العبادات والمعاملات، فزهد الحسن يختلف كليا عن الزهد الصوفي في معناه ومبناه كما أكد ذلك الدكتور عمر عبد العزيز ....

الفرع الثاني وظائف الحسن وكتبه:

يذكر في كتب التراجم للتابعين ان الحسن عَمِلَ في القضاء فعن سليمان بن حرب قال : «حدثنا حماد بن سلمة عن يزيد الرشك قال : كان الحسن على القضاء ولم يحمد فيه : وكان لا ياخذ على قضائه أجرا وانما يعمل ذلك احتسابا حتى استعفي من القضاء - وتفرغ بعد ذلك للعلم والوعظ ومال إلى ذلك بما يرويه الحسن نفسه ان النبي ﷺ دعا عبد الرحمن بن سمرة يستعجله فقال يا رسول الله خير لي، فقال: « اقعد في بيتك» كما عمل الحسن كاتبا للربيع بن زياد ابان غزوة في عهد معاوية.

ولا تذكر كتب التراجم مصدر دخل الحسن المالي وانما تكتفي بوصفه بالسخاء والزهد، ويبدو ان دخله كان من العطاء من الحكومة، وسئل ذات مرة أياخذ عطاء من الدولة ام يدعه ليتقاضاه من حسنات بني أمية يوم القيامة فقال له : قم ويحك خذ عطاءك فإن القوم مفاليس في الحسنات يوم القيامة.

وعن هشام بن حسان قال: بعث سلمة بن عبد الملك الى الحسن جبة وخميصة، فقبلهما، فربما رأيته في المسجد وقد سدل الخميصة على الجبة وكان يقول: «كسب الدرهم الحلال اشد من لقاء الزحف».

والخلاصة ان الحسن كان ورعا في كسب المال سخيا في انفاقه عفيف اليد والضمير تجلله التقوى في كل ما يتعلق بالمال.

الفرع الثالث: مواقف الحسن السياسية:

لقد كان الحسن البصري ابن الجيل الاول فكرا ومنهجا وعملا واتسم موقفه السياسي بالاحتراز وطلب السلامة والنجاة وبراءة الذمة كارها الفتن والخروج على طاعة الامام من غير اخلال بواجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر اذ كان ناصحاً امينا لولاة الامر لهم بالاخرة واذا ما قبل عطاياهم فكان لا يخشى في الله لومة لائم ونتيجة لذلك كان صادعا بالحق شجاعا رغم عنف وقساوة الحكام والولاة واخذهم بالشبهة وسرعة تهورهم في القضاء على الخصوم.

وتبدو مواقف الحسن السياسية واضحة وجلية في علاقاته مع ولاة عصره وفي مقدمتهم أمير المومنين معاوية مؤسس الدولة الاموية، الا أنَّ المصادر لم تتحدث عن هذه العلاقة الا لماما ومن ذلك رسالة الحسن الى معاوية التي يقول فيها : «اما بعد فان الله بعث محمدا ﷺ

رحمة للعالمين وكافة للناس اجمعين ينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين» ولعل انشغال الحسن بالغزو خلال هذه الفترة ولمدة ثلاث سنوات هو السبب في ضحالة علاقته بمعاوية.

وبعكس ذلك فقد كانت علاقة الحسن البصري بمعاصره والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي علاقة تتسم بالزخم والتوتُّر المستمر لسنوات ذوات العدد اذ كانا يمثلان الصراع بين الحق والباطل بين الموالي وبين الدين والدنيا، بين الكلمة الطيبة الزاهدة وحدة السيف وغضبه فالحجاج أعمته الدنيا وزخرفها وأغواه الملك والغطرسة بينما الحسن رغب في الآخرة وزهد في الدنيا ووعظ بالحكمة والتزم بها.

وكان الرجلان على جانب كبير من التشابه وخاصة في الفصاحة وذلاقة اللسان إلا أن الحسن كان أفصح، سيما في الخطب الدينية التي تخاطب العاطفة وتلهب الوجدان بينما كان الحجاج خطيبا سياسيا مؤثرا وكانا يتبادلان الود والاعجاب فكان الحسن يداري الحجاج وينصحه برفق بينما كان الحجاج يجامل الحسن ويعجب به وينصح الناس بمجالسته ويقول فيه حين سئل عن أخطب الناس: «انه ذو العمامة السوداء بين اخصاص البصرة اذا شاء خطب واذا شاء سكت» وبالرغم من هذا التساكن الحذر بينهما فقد كاد الحجاج ان يطيح برأس الحسن كما أطاح برؤوس أخرى لولا لطف الله وقدره -ذلك ان الحسن سئل من طرف الحجاج في شان علي وعثمان فأجابه اقول قول من هو خير مني عن من هو شر منك : قال فرعون لموسى ما بالُ القرون الأولى؟ قال: « علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى» واضاف علم علي وعثمان (ض) عند الله -وكان الحسن يردد كلمات بين شفتيه مستجيرا بربه فحفظه الله من شر الحجاج - وقد قال الحسن عندما بلغه موت الحجاج : «وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين».

وأيام الحجاج خرج ابن الاشعث على الدولة الاموية وخاصة على ظلم الحجاج فطلب من الحسن البصري أن يخرج مع عامة سكان البصرة حتى يكون سندا لهم بعلمه وشجاعته وسمعته الدينية فاتخذ موقفا مستقلا من هذه الثورة وهو عدم مساندتها وعدم الخروج مع انصارها مرتئياً أن يترك أمر الولاة وشأنهم لله تعالى يحاسبهم متمثلا بقول الله تعالى : «ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون» والثورات بنظره لاتجلب الا الغبن والانشقاق كما يرى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أولى من اعمال السيف والثورة وهو من طبيعته وسجيته كُرْهُ الفتن وعدم الوقوع في متاهاتها.

ونجد علاقة الحسن بالخليفة عمر بن عبد العزيز علاقة متميزة علاقة حاكم عادل بامام عادل، علاقة محبة ونصيحة، فالحسن يكتب رسائل مطولة لتذكير عمر وارشاده، وعمر يستأنس برأي الحسن ويستشيره غير ما مرة، وحري ان يقال فيهما «وافق شن طابقه» اذن فمواقف الحسن السياسية مبنية كما نرى على شجب الظلم ونصرة العدل واحقاق الحق وازهاق الباطل.

وبعد وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز (ض) خرجت ثورة جديدة من البصرة يرأسها يزيد بن المهلب بعد ان فر من السجن الذي وضعه فيه عمر لمال مستحق عليه وهنا توسط الحسن البصري لاقناع المهالبة بالعدول عن الثورة بما عهد فيه من فصاحة وقوة اقناع واللجوء إلى الصبر مع الحكام بدلا من الاحتكام إلى السيف والتحريض على الفتنة مستدلا بقول الله تعالى: «وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا» وقول الرسول ﷺ: «انها ستكون عليكم ائمة تعرفون منهم وتنكرون، فمن أنكر بلسانه فقد برئ ومن كره بقلبه فقد سلم يارسول الله: افلا تقاتلهم؟ قال لا ما صلوا».

الفرع الرابع: في وفاة الحسن البصري:

كما كان الحسن البصري (ض) محببا الى الناس في حياته الصاخبة والتي تطرقنا للحديث عن بعض جوانبها بعد مماته ولعل دعوة عمر بن الخطاب أصابته حين قال بشأنه «اللهم حببه الى الناس» اضافة الى ان دعوة الحسن كانت دعوة محبة طيلة حياته مع جرأة على الحق وزهد بما في ايدي الناس والحكام ناصحا لامة المسلمين رحيما بها.

ورغم الضعف والارهاق الذي أصاب الحسن من جراء الشيخوخة وتقدم السن فقد ظلت نفسيته قوية جريئة في الحق حتى آخر رمق في حياته.

ثم تقدم به المرض والشيخوخة حتى أصبح لا يطيق الكلام واصبح عواده يعودونه فرادى ومجتمعين ملتمسين الأجر والثواب والموعظة من رجل محل النصيحة ومكانها فقال مرة لعواده : «اني مزودكم بثلاث كلمات ثم قوموا عني ودعوني وما توجهت له، ما نهيتم من امر فكونوا من اترك الناس له، وما امرتم به من معروف فكونوا من اعمل الناس به، واعلموا ان خطاكم خطوتان خطوة لكم وخطوة عليكم فانظروا اين تغدون واين تروحون».

وفي مرض موته أُغمي على الحسن وافاق من اغمائه فالتفت الى من حوله قائلا : «نبهتموني من جنات وعيون ومقام كريم» واشتد به النزع حتى عجز عن الكلام فصعدت روحه الى بارئها ليلة الجمعة سنة 110 هجرية موافق 728 ميلادية عن عمر يناهز الثامنة والثمانين

وقد صلى عليه عقيب الجمعة النضر بن عمر المقري -وتبع الناس كلهم جنازته واشتغلوا بها حتى ان صلاة العصر لم تقم بالمسجد هذا اليوم مع انها لم تترك منذ ان كان الاسلام إلا يومئذ - فرحم الله الحسن البصري حيا وميتا وبهذا ينتهي القسم الاول من العرض حاولت ان اكون فيه وجيزا اكثر ما يمكن غير مطنب في التحليل اعتبارا للوقت الممدد وتبنيا للحكمة القائلة يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

القسم الثاني

حياة الحسن العلمية

لقد كان الحسن بحق موسوعة علمية ذا ثقافة عالية متنوعة والاحاطة بهذا الجانب من حياة الحسن تتطلب اناة وصبرا كبيرا ذلك ان الحسن مقل في التأليف وعلمه منشور في أمهات الكتب يحتاج تجميعه إلى بصيرة وجهد ولكني اجتزئ بتناول بعض المحطات من حياة الحسن العلمية وفقا للتعميم الآتي ملتزما بالوجازة متحيزا للاقتضاب.

الفرع الاول: شيوخ الحسن وتلامذته:

اولا: شيوخه: لا ريب ان الحسن عاصر كثيرا من الصحابة اذ رأى عليا (ض) وطلحة (ض) وعائشة (ض) ورَوَى عن ابي كعب وسعد بن عبادة وعمر بن الخطاب (ض) ولم يدركهم وروى عن ثوبان وعمار بن ياسر وابي هريرة (ض) وعثمان بن ابي العاص ومعقل بن سنان ولم يسمع منهم في قول، وروى عن عثمان وعلي (ض) وابي موسى وابي بكرة وعمران بن حصين وجندب البجلي وابن عمر (ض) وابن عباس (ض) وابن عمر ومعاوية (ض) ومعقل بن يسار وانس وجابر وخلف كثير من الصحابة والتابعين -اذن فالحسن تلميذ الصحابة النجيب وخريج المدينة البار.

وأهم الشيوخ الذين تتلمذ عليهم الحسن في شبابه هم كالتالي:

1) انس بن مالك الانصاري (ض) خادم رسول الله ﷺ، وقد ثبت سماع الحسن من انس وكان انس معجبا بالحسن حتى قال فيه «اني لاغبط اهل البصرة بهذين الشيخين الحسن وابن سيرين» وكان الحسن يتابع انس في اقواله وافعاله فقد قال بعدم جواز الجمع في عرفة ومزدلفة استشهادا بفعل أنس، ومن جملة ما روى الحسن عن أنس قول انس قال رسول الله ﷺ: «ان السرف ان تاكل ما اشتهيت».

2) عبد الله بن عباس.

3) عبد الله بن مغفل بن عبد نهم بن عقيق المزنى، احد العشرة الذين بعثهم عمر ليفقهوا الناس في البصرة.

4) معقل بن يسار المدني ممن بايع تحت الشجرة روى عن عمران بن حصين ومعاوية بن قرة وهو الذي ينسب إليه نهر معقل بالبصرة، ومما رواه الحسن عنه : «افطر الحاجم والمحجوم».

5) الاحنف بن قيس شيخ البصرة الكبير، وقد روى الحسن عن الاحنف الكثير - وقائمة شيوخ الحسن ما تزال طويلة وقد اوردت نماذج منها كالدلالة على المستوى الرفيع الذي تمثله في العلم والحديث والقرب من جيل الاسلام الاول، وممن روى عنهم الحسن عبد الرحمن بن حجر وعبد الله بن عمر بن الخطاب (ض) وعبد الله بن عمر وبن العاص (ض) كما روى عن عثمان بن عفان بن ابي العاص القرشي (ض) وعمر بن تغلب النمري ونفيع بن الحارث الثقفي.

ثانيا: تلامذته: لقد اشتغل الحسن البصري اكثر من سبعين عاما طالبا للعلم وناشرا له يدرس في حلقات المسجد ويخطب فيه ويحدث -وكما اسلفنا فقد كان له مجلسان مجلس في المسجد الجامع ومجلس خاص في بيته وكان طلاب العلم يتحلقون حوله - وقد انتقل علم الحسن- الرواية من هؤلاء التلاميذ- وكان مجلسه متنوعا في الحديث والتفسير والفقه، وفيما يلي عرض موجز لنخبة من تلاميذه:

1) ايوب السختياني بن ابي تميمة الذي قال عنه ابن سعد : «كان ايوب ثقة كثير الحديث جامعا عدلا ورعا كثير العلم، حجة، ولد سنة 86 هجرية وعاش في البصرة والتقى بالامام الحسن وجلس في حلقته وقال عنه الحسن : سيد شباب أهل البصرة.

2) حماد بن سلمة بن دينار البصري ويكنى أبا سلمة - وكان ثقة كثير الحديث ورعا حدث بالمناكير وكان مواظبا على الاعمال الصالحة وقراءة القرآن.

3) عبد الله بن عوف بن ارطبان المربى- التقى بالحسن واخذ عنه العلم واكثر اسانيده عنه وكان يصوم يوما ويفطر يوما وجمع الكثير من الاسناد.

4) عمرو بن عبيد بن باب التميمي البصري، توفي سنة 142 وقد جالس الحسن وحفظ واعتزل الحسن مع واصل بن عطاء، وقال بالقدر -وقال الحسن في وصفه بعدما سئل عنه :

سالتني عن رجل كان الملائكة ادبته وكان الانبياء ربته... وكان له سمت الزهاد.

5) فرقد السجني أبو أيوب البصري وكان نصرانيا واسلم من كبار زهاد المسلمين في عهد الحسن، جالس الحسن وسمع منه واشتهر بفكرة الجوع وكان يقول : «ويل لذي بطن من بطنه ان اضاعه ضعف وان اشبعه ثقل» وكان يلبس الصوف وينصحه الحسن قائلا : «دع عنك نصرانيتك هذه».

6) قتادة بن دعامة بن عزيز بن عمرو بن ربيعة السدوسي البصري، توفي سنة 117هـ اشتهر بالتفسير وجالس الحسن طويلا اكثر من اثنتي عشرة سنة وكان يقول ماجالست فقيها إلا رأيت فضل الحسن عليه، وقد عرف قتادة هذا بالحفظ الشديد حتى قال عنه الامام احمد : قلما تجد من يتقدمه.

7) واصل بن عطاء المعروف بالغزال المعتزلي الالثغ ولد سنة 80 وكان احد الائمة البلغاء المتكلمين - وخرج على الحسن في قوله بالمنزلة بين المنزلتين وانقطعت علاقته بالحسن بعد ان كان تلميذه.

ولا ريب انه كان للحسن البصري تلامذة كثير غير هؤلاء ورواة لحديث عددهم ليس بالقليل اهتمت بالتعريف بهم كتب التراجم ولمن يريد التفصيل الرجوع اليها واستشارتها.

الفرع الثاني الامام الحسن فقيها:

برز الحسن فيما برز فيه بالفقه وكانت له نظرة خاصة للفقه ويبدو ذلك من جوابه لرجل سأله عن الفقهاء اذ قال : «هل رأيت فقيها قط، انما الفقيه الزاهد في الدنيا البصير بدينه المداوم على عبادة ربه».

والفقه يمثل الطابع الحقيقي للتفكير الاسلامي ويعرف بالعلم بالاحكام الشرعية العلمية المكتسبة من ادلتها التفصيلية، وقد مر باطوار متعددة ففي الطور الاول كان يطلق على التشريع بمعناه الواسع وكانت السلطة التشريعية في هذه الفترة تعود للرسول ﷺ وحده فالاحكام كانت تنزل متدرجة والرسول يفتي المسلمين في مسائلهم إفتاءً حاضرا طريا وكان هذا طور النشوء.

وفي الطور الثاني اعني عَهْدَ الصحابة والتابعين (ض) امتد الاسلام وانتشر في بقاع شاسعة مما اضطر الخليفة عمر (ض) ان يرسل الصحابة ليعلموا الناس ويفقهوهم، وعلى

اثر هذا التوسع واشتعال الفتن واختلاف الآراء تطور الفقه وظهر الاجتهاد والمجتهدون وانبثقت عن ذلك المدارس الفقهية التي أظلت عالمنا الاسلامي منذ العهد الاول الى يوم الناس هذا.

وكان الناس يرجعون في عهد الصحابة للقرآن الكريم وسنة الرسول الامين ﷺ ثم الاستشارة وجمع أهل الرأي والقضاء بما اجمعوا عليه - وامتازت هذه الفترة بالوقوف عند ظواهر النصوص دون بحث عن علة التشريع أو حكمته وفي غياب النص يجب العمل بالرأي المبني على روح النصوص وفهمها، ومن هنا نشأ النظر في علل الاحكام وحكمة تشريعها، وفي عهد التابعين كان الناس لا يتعدون فتاوى الصحابة المقيمين بين ظهرانيهم الا اليسير مما كان يبلغهم عن غيرهم وهكذا اتبع اهل المدينة فتاوى عبد الله بن عمر (ض) واتبع اهل الكوفة في الأكثر فتاوى عبد الله بن عباس (ض) واتبع أهل مصر فتاوى عبد الله بن عمر (ض) واتبع أهل البصرة فتاوى ابي موسى الاشعري وعمران بن الحصين (ض).

ومن هنا نشأت الرحلة في طلب الحديث وتتبعه وجمعه وندب أقوام انفسهم لذلك فوصلت احاديث رسول الله الى البلاد النائية وكانت فتاوى العلماء مستمدة من الحديث الى ان استقر العمل على مذهب مالك والشافعي وأبي حنيفة واحمد بن حنبل.

وفي هذا المناخ المليء بالنشاط العلمي والحديثي ان صح القول كان الحسن البصري أحد الأعمدة التي بني عليها الفقه الاسلامي - وكان منهجه في الفقه الميل للحديث والوقوف بشدة على ما صح عنده من عمل الصحابة واضاف الى هذا الميل للحديث القول بالقياس والعرف والاستحسان وهو يصرح بذلك حينما سأله ابو سلمة بن عبد الرحمان: «أرأيت ما تفتي الناس شيئا سمعته ام برأيك فقال الحسن : لا والله ما كل ما نفتي به سمعناه، ولكن رأينا لهم خيراً من رأيهم لأنفسهم» علاوة على أن المنهج الفقهي للحسن البصري كان متأثرا بشخصيته الزهدية المبنية على العاطفة واعذار الناس فنراه يلتزم حكما لنفسه ويفتي غيره بخلافه، مثلا كان لا ياخذ اجرا على التعليم وفي نفس الوقت يدفع اجرا للمعلم الذي يلعم ابن اخيه.

وربما استمد بعض جزئيات فقهه من المجتمع والبيئة وعالجها على اسلوب التكريه لا التحريم فكان يوسع باب الكراهة ولا يقول بالحرام إلا بما نص عليه وبذلك كان الحسن يتقمص شخصية المربي الذي يتدرج في تفهيمه الشرع للناس الحريص على تربيتهم لا على محاسبتهم - وبقدر ما كان رحيما بالناس بقدر ما كان يلتزم الحذر والخوف على نفسه.

وهذه النظرة الشمولية والسعة في فقه الحسن جعلته في مصاف الفقهاء اصحاب المدارس وهو نموذج لفقه الدليل وفقه اهل الحديث فيمكنك ان تعده شافعيا مرة ومالكيا مرة وحنفيا مرة أخرى وحنبليا حينا آخر، وقد ياتي بفقه لم يسر على مذهب هؤلاء الاعلام متميزا في بعض مسائله، وقد جمع فقه الحسن ميزات الطور الاول وسعة أهل المذاهب في الاطوار المختلفة وكان يعتمد التمسك بالدليل مع فهم لتفتح الحياة.

وفيما يلي نماذج لمواقف الحسن الفقهية بايجاز:

1) ففي مجال مسائل الطهارة كان يرى ماء البحر طهوراً كأكثر الفقهاء واستدل بقوله سبحانه: «فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا» وماء البحر يدخل في عموم كلمة ماء.

2) وفي مجال احكام الاستنجاء وآداب التخلي يرى ان الاستجمار المجزئ يكون بثلاثة احجار ويرى ان الاستنجاء بالماء ليس حسنا وقال بكراهة البول قائما.

3) وفي مجال الوضوء يرى ان التسمية واجبة مثل الغسل وان غسل الكفين قبل ادخالهما في الاناء واجب على كل من قام من النوم وان اللحية لا يجب تخليلها بل يكفي غسل ظاهرها وان الاقتصار على مسح بعض الرأس كاف كما يجوز المسح على العمامة وان الاذنين تعتبران من الرأس كما قال بجواز المسح على الرجلين وقرأ بجر الأرجل في الآية «وارجلكم الى الكعبين» واعتبر ان الترتيب في الوضوء ليس بواجب، وللمصلي الصلاة كلها بوضوء واحد ما لم يحدث وكذلك الامر بالنسبة للتيمم.

وفيما يخص نواقض الوضوء يرى الحسن ان لمس المرأة لا ينقض الوضوء مطلقا - وان النَّوم ناقض للوضوء كان قليلا ام كثيرا وان القهقهة في الصلاة توجب الوضوء، وان مصافحة المشرك توجب الوضوء كذلك.

4) وفي مجال الاذان والاقامة كان يبعدهما عن النساء ويكره الاذان بغير طهارة ويجوز الكلام للحاجة أثناء الآذان، ويجوز الآذان على الراحلة -اي المركب- وكان يرى كراهة اخذ الاجرة على الاذان.

5) وفي مجال اعمال الصلاة:

قال الحسن بان تكبيرة الاحرام سنة وليست واجبة وعلى المصلي اسدال يديه اثناء القيام ورفع يديه عند الركوع والرفع منه ويرى ان الاستعاذة قبل قراءة الفاتحة في الصلاة سنة- والامر كذلك في كل ركعة قبل القراءة وان التسمية مشروعة في اول الفاتحة، وللحسن روايات

فيما يتعلق بالقراءة من المصحف في الصلاة فرواية تقول لا تجوز وتبطل الصلاة وفي ذلك تشبه باهل الكتاب واخرى تقول بكراهة القراءة واخرى تقول بجوازها للامام ورواية أخيرة تجيز القراءة في النفل دون الفرض.

وفيما يخص احكام السهو يرى الحسن ان الامام اذا زاد في عدد الركعات ولم يعلم الا بعد فراغه يسجد للسهو وصلاته صحيحة، وانه يسجد للسهو اذا نسي التشهد الاوسط، ويتحمل الامام السهو وليس على من سها خلف الامام سجود -ولا سجود على الماموم اذا لم يسجد الامام، ويسجد الماموم مع الامام اذا سهى الامام قبله وكان مسبوقا سواء كان السجود قبليا ام بعديا - ولا سجود للسهو في سنة خفيفة كالجهر أو السر في غير موضعه.

وفي أحكام الامامة يرى الحسن ان المصلين اذا كانوا ثلاثة فاكثر يقف الامام امامهم ويقف المأموم المنفرد على يسار الامام، وان امامة الصبي صحيحة مطلقا في الفرض أو غيرها وكذلك الأمر بالنسبة لامامة العبد بالاحرار وفي امامة النساء للنساء روايتان له بالجواز وعدمه، كما يرى جواز قتل الحية والعقرب في الصلاة والفتح على الامام ورده من طرف الماموم.

وفيما يتعلق بالجمعة يرى الحسن ان خطبة الجمعة سنة تجوز الصلاة بغيرها وان تحية المسجد مستحبة والامام يخطب وان تشميت العاطس جائز أثناء الخطبة ولا بأس بالكلام بين الخطبيتين، وقال بعدم وجوب الجمعة على النساء والعبيد وبجواز تخطي رقاب المصلين بقصد الوصول الى فراغ كما قال بكفر تارك الصلاة وان الصلاة الوسطى هي صلاة العصر.

6) وفي مجال الزكاة وصدقة الفطر ارتأى الحسن ان لا زكاة في مال الصبي والمجنون وفي رواية خصص عدم الزكاة في الذهب والفضة.

وحدد الزكاة في الزرع والثمار في أربعة اصناف : الحنطة والشعير والتمر والزيت، ورأى اخراج الزكاة في الطرق والجسور ومشاريع الخير استدلالا بالآية : « في سبيل الله» كما قال بوجوب الزكاة فيما يخرج من البحر كاللؤلؤ والمرجان - وبوجوب الزكاة على الميت وتوخذ من ماله لانها دين عليه- وفيما يخص صدقة الفطر قال بوجوبها كما عند الجمهور ولا تجب إلا على المخاطب بالصوم اذن فلا تجب على صغير بينما تجب على العبد المكاتب أيضا.

7) وفي مجال الصيام أجتزئ بذكر بعض آرائه فقد كان يرى الحسن اتباع الامام في الصيام والافطار إن عم حائل دون الرؤية وعدم وجوب الصوم على من رأى الهلال وحده -

وان الرؤية لا تثبت الا بشهادة رجلين - وان صيام التطوع صحيح سواء بيت الصائم النية ام لا - واجاز للشيخ الكبير الافطار واطعام مسكين عن كل يوم بقدر ما اجاز ذلك للحامل والمرضع مع القضاء - كما للمسافر الحق في ان يفطر وهو في بيته اذا نوى السفر والخروج، وكان يرى ان الصبي يومر بالصيام اذا أطاقه وان الكافر لا يلزمه قضاء مافاته قبل إسلامه.

8) وفي مجال الحج والعمرة:

ذهب الامام الحسن الى ان العمرة واجبة وانه يكره للمسلم ان يعتمر اكثر من مرة في العام - واشهر الحج عنده شوال، ذو القعدة وعشرة من ذي الحجة، وذهب الى ان التمتع افضل مناسك الحج وان الانابة جائزة للحي ان لم يحج عن نفسه - ومن مات وعليه حج وهو قادر يجب ان تؤدى عنه من ميراثه - ويرى ان الجماع قبل طواف الإفاضة يبطل الحج وعليه حج قابل - ولا باس بشم الريحان والنرجس وجواز الادهان بدون طيب ويرى ان مبيت منى ايام التشريق سنة وليس بواجب.

9) وفي ميدان البيوع قال الحسن بأن الشرط المنافي لمقتضى البيع فاسد والبيع صحيح ورخص في بيع المصاحف واجاز بيع المرابحة وهو البيع برأس المال مع نسبة معينة من الربح للبائع وقال بعدم جواز بيع الكلاب سواء للصيد او الحراسة او غيرها ولم ير بأسا في الهر كما اجاز بيع اللبن في الضرع والثمار في شجرها اذا نضجت ورأى ان الخيار في المجلس في البيوع وقال بعدم جواز بيع الحب بدقيقه وعدم جواز بيع اللحم بالحيوان.

وفي مجال ما انفرد به الحسن البصري من آرائه نعرض لبعضها كما يلي:

- من صافح مشركا فليتوضأ.
- غسل الكفين ثلاثا قبل ادخالهما في الاناء والا ينجس الماء.
- من جامع زوجته وهي حائض وجبت عليه كفارة من جامع اهله في رمضان.
- جواز تغميض العينين في الصلاة ولا كراهة في ذلك.
- جواز استمرار قصر المسافر للصلاة مادام لم يجد مصرا يقيم فيه ولو طال به الامد.
- جواز اعطاء الجزار جلد الهدي.

وبصفة عامة نرى مما سبق ان فتاوى الامام الحسن موافقة ومطابقة لفتاوى المذاهب الأربعة الا فيما ندر ونراها شاملة لمختلف فنون العلم وتصلح ان تكون مؤلفا مستقلا سهل التناول - ومع اخذه بِظاهر النصوص واحوال الصحابة فهو يميل في بعض الفتاوى الى الرأي وقد يكون غريبا متأثرا باحوال الناس وحالته النفسية الزهدية كما المحنا الى ذلك سابقا، والحق ان الحسن كان ثقة في فتاويه، حريصا عليها جاهرا بها مما اكسبته سمعة علمية متميزة إضَافة الى ثناء العلماء عليه.

الفرع الثالث: الحسن: مفسرا:

لقد تصدى الحسن البصري لعلم التفسير وكان من رجاله، فقد كان مالكا لشروطه ومؤهلاته، عالما بلغات العرب وبالنحو والتصريف وعلوم البلاغة والقراءات كما كان عالما بأُصول الفقه وناسخ القرآن ومنسوخه ومدركا لاسباب النزول - كل هذه المؤهلات جعلت مِن الحسن احد رواد المفسرين الاوائل لكتاب الله.

وقد كانت مصادر التفسير في العهد الاول : القرآن الكريم ثم السنة النبوية، ثم الاجتهاد والاستنباط ثم علم اهل الكتاب من اليهود والنصارى - وكان الصحابة في حياة الرسول ﷺ ياخذون التفسير من الرسول الكريم يفسر لهم القرآن بالقرآن والقرآن بالسنة وبعد وفاته اعتمدوا على النقول فيما بينهم وعلى ما تيسر لهم من اجتهاد، وقد برز عدد منهم في التفسير وتخصص فيه ومن اشهرهم : الخلفاء الراشدون (ض) وابن مسعود وابن عباس وابي بن كعب وزيد بن ثابت وابو موسى الاشعري وعبد الله بن الزبير (ض).

وبعد كثرة الفتوحات وشساعة البلاد المفتوحة وتوزع علماء المسلمين فيها، انبثقت عن ذلك مدارس تفسيرية وكان من بينها :

1) مدرسة مكة وقامت على تفسير عبد الله بن عباس (ض) ومن اشهر تلاميذه سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وطاووس وغيرهم كثير.

2) مدرسة اهل المدينة وقامت على تفسير ابي بن كعب ومن اشهر رجالها زيد بن اسلم وابو العالية رفيع بن مهران الرياصي.

3) مدرسة البصرة حيث بدأ علم التفسير بها مبكرا إذ ارسل اليها عمر بن الخطاب (ض) ابا موسى الاشعري وهو من كبار الصحابة ليعلم أهلها القرآن والقراءات فكان أن تلقى

عنه عدد غفير من الطلبة والعلماء وفي مقدمتهم الحسن البصري موضوع حديثنا وابن سيرين وقتادة وجابر بن زيد وغيرهم. وهكذا كان للحسن باع طويل في علم التفسير مثلما كان متضلعا في الفقه والحديث وقد قال فيه صاحب كتاب «التفسير والمفسرون» « هذا وان الحسن البصري ليجمع الى صلاحه وورعه وبراعته في الوعظ غزارة العلم بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ - واحكام الحلال والحرام وقد شهد له بالعلم خلق كثير».

ومن الجدير بالذكر أن الحسن البصري يعبتر بحق مدرسة تفسيرية أخذ عنه قتادة الشيء الكثير المنشور في كتب التفسير وكان يميل في تفسيره إلى الوعظ وسرد القصص بأسلوب فني جميل، ومن ذلك مثلا تفسيره لقول الله تعالى: «ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين» يقول الحسن: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله هذا خليفة الله، احب الخلق الى الله، اجاب الله في دعوته ودعا الناس الى ما اجاب الله منه من دعوته، وعمل صالحا في اجابته وقال انني من المسلمين، فهذا خليفة الله.

ومن نماذج تفسير الحسن تفسيره للآية «إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن ابكارا» حيث قال أتت عجوز، فقالت يارسول الله ادع الله ان يدخلني، فقال يا ام فلان ان الجنة لا تدخلها عجوز، قال فولت تبكي، فقال اخبروها انها لن تدخلها وهي عجوز وقرأ الآية...

ومن هذه النماذج ايضا تفسيره لقول الله تعالى: «وشاورهم في الامر» قال الحسن ما امر الله تعالى نبيه بالمشاورة لحاجة منه الى رأيهم وانما اراد ان يعلمهم ما في المشاورة من فضل ولتقتدى به امته من بعده.

الفرع الرابع: الحسن: داعية:

كانت حياة الحسن مركزة بشكل اساسي على الدعوة الى الله وتوجيه العباد الى طاعته وكانت نفسه تتمثل الورع والزهد والعفة وتعظيم الآخرة وكانت الدعوة بنظره ان يطلب من الناس الايمان بالله وبكتابه وسنة رسوله ﷺ مع العمل بذلك والالتزام به امتثالا للآية الكريمة: «قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني» - والدعوة الى الله تدور بنظره لذلك على انقاذ الناس من الضلالة وتحذيرهم من الامور المؤدية لهلاكهم وضياعهم، وقد تكون الدعوة بالسيف ان دعت الضرورة لذلك وهذا بابه الجهاد وقد تكون بالعلم وهذا سبيله العلماء وقد تكون بالوعظ والارشاد وهذا شأن الوعاظ المرشدين والدعاة مصداقا لقوله تعالى: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم

المفلحون» الآية: 104 من آل عمران - ولقوله ﷺ: «الدين النصيحة قالها ثلاثا قلنا لمن يارسول الله؟ قال لله ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم».

الفرع الخامس: مؤلفات الحسن البصري:

ان من يدرس حياة الحسن البصري ويتفهم جوانب حياته لا يعجب ان لا يرى للحسن مؤلفات بالمعنى المصطلح عليه، فالتأليف عنده كان بطريقة خاصة فبدل ان يدون علومه في الكتب اودعها في قلوب الرجال وخرجت مدرسته آلاف العلماء الذين نفع الله بهم الامة - فقد توجه الحسن الى العلم والتعليم مشافهة وكان في ذلك منسجما مع عصره فلم تكن المؤلفات بشكلها الحاضر موجودة الا في النادر اذ لم يظهر التأليف والتدوين الا بعد عصر الحسن وليس هذا عيبا للحسن فهو ابن عصره وتربيته تربية زهد وبعد عن الشهرة - وهناك بعض الاشارات تقول انه كان للحسن بعض المؤلفات ولكنه احرقها، ومهما يكن امر هذه الاشارات ومدى صحتها او عدم صحتها فقد روي عن الحسن قوله «ما قيد العلم بمثل الكتاب» وعن تمام بن نجيح عن الحسن: «انه كان يكتب للناس العلم ويعرضه عليهم» - وان دل كلامه هذا على شيء فانما يدل على ان الحسن كان يوحي بنجاعة الكتابة للعلوم مما يضمن استمراريتها وانتقالها للاجيال المتلاحقة عبر العصور والاحقاب المتتالية، وعلى كل حال فقد خَلُصت للحسن بعض المؤلفات نص عليها اصحاب الاختصاص ومن بينها:

1) فضائل مكة والسكن فيها - طبع في الكويت 1980.
2) كتاب العدد (أي وأي عدد آي القرآن الكريم) وكتابٌ في التفسير.
3) كتابه الى عبد الملك بن مروان في الرد على القدرية.
4) رسالة في التكاليف.
5) نزول القرآن.
6) اربع وخمسون فريضة.
7) شروط الامامة.
8) رسالة الى عمر بن عبد العزيز.

هذه نظرة موجزة عن مؤلفات الحسن البصري وهي كما نرى لا تعكس علوم الحسن الموسوعي تلك العلوم المبثوثة في امهات كتب الحديث والتفسير.

واذا كان المطلوب من الداعية ان يكون متوفرا على العلم وتوصيله للناس بالحكمة والموعظة الحسنة بقدر توفره على الزهد والحلم وسعة الصدر والفصاحة والتواضع وان يكون قدوة حسنة في دعوته، فقد احسن الامام البصري في كل ذلك واجاد ايما اجادة، وكان حكيما ينطق بالكلمة في موضعها مركزا على علوم الآخرة التي هي اول ما نقصت في حياة الناس وكان يخاطب كل انسان حسب منزلته فيصبر على الجاهل والغافل والساهي وان خاطب العلماء والقراء شدد عليهم، وقد اكثر الحسن من العفة والاستغناء عن الناس، وفي هذا الصدد روي ان اعرابيا سأل اهل البصرة من سيدكم ؟ قالوا الحسن. قال بم سادكم ؟ قالوا: احتاج الناس الى علمه واستغنى هو عن دينارهم. قال الاعرابي: ما احسن هذا.

وكان موقفه من الحكام حذرا متجنبا الفتن فبقدر ما يعظهم ويرشدهم يفعل نفس الشيء مع الرعية محافظا على توازن المجتمع وكارها اراقة الدماء - وهكذا تعهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (ض) بنصائح ودرر ومواعظ لها فعل السحر ورسم له خطة للحكم بما ينفع الناس وصفها احد الكتاب بقوله: «لو ان فيلسوفا اخلاقيا تخير حاكما لمدينة فاضلة ما اختار إلا ما وصفه الحسن حاكما يصلح حياتها ويجعلها نعيما».

الفرع السادس: مكانة الحسن العلمية وآراء العلماء فيه:

نظرا لشخصية الحسن الفذة ومكانته العلمية المتميزة كما المحنا الى بعض معالمها فقد نال منزلة خاصة عند الامة كما نال نفس التقدير والاعجاب من العلماء بل ملئت كتب التراجم والطبقات بالتعريف به، ومن العجيب أن كل مذهب ظهر بعد الحسن، تعلق بشيء من علمه فالقدرية تعلقوا ببعض كلامه وعدوه منهم وأهل الرأي حسبوه من مدرستهم. وأهل الحديث نسبوه لمدرستهم، والشيعة نقلوا كلامه واستشهدوا به والصوفية ادعته وبنت عليه طبقاتها والحق ان الحسن يمثل طورين من اطوار التاريخ الاسلامي، عصر الصحابة وعصر التابعين وكان يتقمص شخصية الصحابي بقدر ما يتقمص شخصية التابعي بكل ما تمتاز به الشخصيتان من سمو في العلم والاخلاق والورع.

وفيما يلي نورد بعض الشهادات التي اوردها الدكتور عمر عبد العزيزالجغبير دليلا على استقامة الحسن وصدقه وعلمه وفضله.

1) نقل ابن سعد في طبقاته: «كان الحسن جامعا عالما رفيعا فقيها، ثقة مامونا عابدا ناسكا - كبير العلم، فصيحا وسيما الى ان قال وما ارسل من الحديث فليس حجة قدم مكة فاجلسوه على سرير واجتمع الناس اليه فحدثهم».

2) قال ابو اسحاق الهمداني: «كان الحسن يشبه اصحاب رسول الله ﷺ.

3) وعن حميد ويونس بن عبيد انهما قالا: «لقد رأينا الفقهاء فما رأينا منهم اجمع من الحسن».

4) وعن قتادة قال: «كان الحسن من اعلم الناس بالحلال والحرام».

5) وعن الحجاج الاسود: «تمنى رجل فقال ليتني بزهد الحسن وورع ابن سيرين وعبادة عامر بن قيس وفقه سعيد بن المسيب فنظروا ذلك فوجدوه كاملا في الحسن».

6) وعن سليمان بن حرب عن غالب القطان قال: «وكان فضل الحسن عليهم - اعني علماء زمانه - كفضل الباز على العصافير».

7) وعن بكر المزني: «من سره ان ينظر الى اعلم عالم أدركناه في زمانه فلينظر الى الحسن فما ادركنا الذي هو اعلم منه.

8) وقال الأعمش: ما زال الحسن يعي الحكمة حتى نطق بها وكان اذا ذكر عند ابي جعفر - يعني الباقر قال ذاك الذي يشبه كلامه كلام الانبياء.

9) وقال ابن حبان في الثقات: «وكان الحسن من افصح اهل البصرة واجملهم واعبدهم».

10) وفي مرآة الجنان: «ان الحسن من سادات التابعين وكبرائهم.

11) وقال النووي في تهذيب الاسماء واللغات: «هو الامام المشهور المجمع على جلالته في كل من ابو سعيد الحسني. هذه نماذج ضحلة وقليلة من شهادات العلماء الذين عاصروه او اتوا بعده من عارفي قدره ومحبي علومه ولايمكنني استيعابها كلها في هذا العرض الوجيز - هذا ولا يخفى ان علوم الحسن البصري كانت موضوع رسائل جامعية كثيرة ومن بينها رسالة الدكتور عمر بن عبد العزيز الجغبير التي اعتمدتها من بين مراجع هذا العرض الوجيز. وقد شهد العلماء المحدثون والباحثون المعاصرون بالمكانة العلمية والحديثية والزهدية لشخصية الحسن البصري واكتفي بايراد شهادة واحدة من المحدثين هو الدكتور مصلح سيد بيومي في رسالته: «الحسن البصري من عمالقة الفكر والزهد والدعوة في الاسلام» اذ

قال: «فقد جمع بين الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح (ض) وكان صاحب خبرات بعصره الذي عاش فيه وكان لخطره وقدره في مجتمعه ان حاولت كل جماعة وفرقة ان يكون سيدا واماما لها، ولا تكاد تجد كتابا او بحثا في الدراسات الاسلامية الاصيلة الا وفيه جانب من علم هذاالامام العظيم، واضاف «ان الحسن كان دائرة للمعارف في عصره، وكان دائما يميل الى اصلاح الفرد والمجتمع كما كان يشارك في الحفاظ على كيان هذا المجتمع الذي عاش فيه.

الفرع السابع: الحسن البصري محدثا:

كما المحنا الى ذلك في بداية العرض المتعلق بالحياة العلمية للحسن البصري اذ يعتبر احد الحفاظ الاعلام ورأس الطبقة الثالثة كما اكد ذلك مختار الصحاح وقد ترجم له كل من عني بالرجال، وهو شيخ اهل البصرة، اتصل بالصحابة في البصرة وخلال غزواته معهم - فقد جمع عنهم احاديث كثيرة - ولم يكن الإسناد ظاهرا في تلك الفترة - وكان جل اهتمامه يدور حول معنى الحديث وما فيه من حث على الخير وقد تخصص بجوانب من الاحاديث ذات طابع يتصل بنفسيته واكثرها يميل الى الزهد والعزوف عن الإمارة وتذكر الموت.

ولما ظهر السند تتبع العلماء احاديث الحسن فوجدوه يرسل كثيرا وربما يدلس فترجموا له بكثير الارسال - وقد اخرج حديثه اصحاب الكتب الستة وغيرهم وكان عمدته في الحديث انس بن مالك (ض) وسمرة بن جندب.

وقبل الحديث عن نماذج من مراسل الحسن البصري ارى من المناسب الاشارة الى تعريف المرسل في الحديث على الخلاف الذي وقع فيه على النحو التالي:

1) هناك من وسع معنى الارسال وهو قول الواحد من اهل الامصار تابعي او تابع تابعي ومن بعدهم ولو بعد: قال رسول الله ﷺ وينسب هذا القول لغلاة الحنفية.

2) وهناك من ضيق معنى الارسال اذ اختص به كبار التابعين من الذين ادركوا كثيرا من الصحابة كسعيد بن المسيب.

3) ومن المحدثين من قال ما سقط في سنده رجل وانقطع على اي وجه كان انقطاعه سواء كان المرسل له تابعيا أو من بعده.

4) ومنهم من قال -ان المرسل ما قال فيه التابعي قال رسول الله ﷺ سواء كان من كبار التابعين أو صغارهم.

وحسبما قاله الذهبي في الموقظة فالمرسل علم على ماسقط ذكر الصحابي في اسناده فيقول التابعي قال رسول الله ﷺ وعلى عكس ذلك عمم الفقهاء والاصوليون معنى المرسل الى كل من ينقطع سواء كان تابعيا أو بعده.

اذن يبقى رأي الذهبي هو رأي المحدثين وكل من يشتغل بعلم الحديث.

وفيما يلي استعرض نماذج من مراسيل الحسن البصري كما اخرجتها كتب السنة الصحيحة تقريبا لعمل الحسن في مجال الحديث واعطاء امثلة من احاديثه في مختلف الموضوعات سواء كان الامر يتعلق بالعبادات او المعاملات وأسوق هذه الاحاديث على سبيل المثال لا الحصر لان الوقت لا يسمح باستيعابها كلها في عجالة كهذه، وكما المحت اليه في بداية العرض فما لا يدرك كله لا يترك جله او بعضه، وعليه فالنماذج المختارة هي كالتالي:

1) حديث عن الحسن قال: «لما جاء بهن رسول الله ﷺ الى قومه - يعني الصلوات خلى عنهن حتى اذا زالت الشمس عن بطن السماء نودي فيهم الصلاة جامعة، ففزعوا لذلك فاجتمعوا فصلوا «اخرجه ابو داوود في المراسيل، كتاب الصلاة عن محمد بن المثنى عن عبد الاعلى عن سعيد عن قتادة عن الحسن به.

2) حديث الحسن قال قال: رسول الله ﷺ: «اذا صلى احدكم بالقوم فليقدر الصلاة بأضعفهم، فإن وراءه الكبير والضعيف وذا الحاجة والمريض والبعيد» اخرجه ابو داوود في المراسيل كتاب الصلاة عن وهب بن بقية عن خالد بن عبد الله الواسطي عن يونس عن الحسن به كما اخرجه مسلم في صحيحه بمعناه عن ابي هريرة وعن ابي مسعود الانصاري وكربي داوود واحمد والبيهقي في كتاب الصلاة.

3) حديث الحسن، قال قال رسول الله ﷺ: «حصنوا احوالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة، واستقبلوا امواج البلاء بالدعاء والتضرع». اخرجه ابو داود في المراسيل كتاب الزكاة - عن محمد بن سليمان الانباري عن كثير بن هشام عن عمر بن سليم الباهلي عن الحسن به.

4) حديث عن الحسن قال: «نهى النبي ﷺ ان يشاب لبن البيع» اخرجه ابو داود في المراسيل في كتاب التجارة عن وهب بن بقية عن خالد بن عبد الله الواسطي عن يونس عن الحسن به.

كما أخرجه ابن ابي شيبة في مصنفه باب اللبن يغش بالماء.

5) حديث الحسن ان رجلا قال: يارسول الله، ان عندي يتيمة أفاتزوجها، قال: أرأيت لو كانت قبيحة لا مال لها، اكنت تتزوجها ؟ قال: لا، قال: فخل لها. اخرجه ابو داود في المراسيل في كتاب النكاح عن موسى بن اسماعيل عن حماد عن حميد الطويل عن الحسن به كما رواه البيهقي في كتاب الزكاة.

6) حديث الحسن قال: امر النبي ﷺ ان يقاتل العرب على الاسلام ولا يقبل منهم غيره وأمر أن يقاتل أهل الكتاب على الاسلام فإن ابوا فالجزية» اخرجه ابو داود في المراسيل كتاب الجزية عن زياد بن ايوب عن هيثم عن يونس عن الحسن.

7) حديث الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «بر الوالدين يجزي من الجهاد» اخرجه ابو داوود في المراسيل كتاب بر الولدين عن ابي بكر بن ابي شيبة وكلاهما عن حفص بن غياث عن اشعث عن الحسن به.

8) حديث الحسن «ورث رسول الله ﷺ الجدة السدُس» اخرجه ابو داود في المراسيل عن عبيد الله بن معاذ عن ابيه عن اشعث عن الحسن به، كما اخرجه الامام احمد في مسنده بمعناه...

9) حديث الحسن قال: «ان شاء الرجل صلى صلاة التطوع قائما وجالساً ومُضْطَجِعاً «اخرجه الترمذي في الصلاة عن محمد بن بشار عن ابن ابي عدي عن اشعث عن عبد الملك عن الحسن.

10) حديث الحسن: «يجلد السكران من النبيذ» اخرجه مسلم في المقدمة عن حجاج ابن الشاعر عن سليمان بن حرب عن حماد بن زيد قال قيل لأيوب ان عمرو بن عبيد روى عن الحسن قال: لا يجلد السكران من النبيذ «انا سمعت الحسن يقول: «يجلد السكران من النبيذ».

هذه ثلة وجيزة من مراسيل الحسن البصري ومن اراد الاطلاع عليها بتفصيل وتعمق فليرجع اليها في الصحيحين وكتب السنة الاخرى ففيها ما يشفي الغليل ويروي الظمآن مما رواه الحسن البصري من مراسيل وغيرها.

القسم الثالث:

مواعظ الحسن البصري وحكمه

بما ان مواعظ الحسن البصري وحكمه كثيرة وغزيرة كان علي ان انتقي البعض منها كنماذج للافكار والمبادئ التي اعتمد عليها البصري في تهذيب النفوس وتقويم الاخلاق وتشذيب السلوك وبصفة عامة في تربية المجتمع الاسلامي في فترة تعتبر ذهبية فترة الصحابة والتابعين رضي الله عنهم وارضاهم.

وعلينا ان نأخذ بعين الاعتبار ان هذه المواعظ والحكم لم تكن سوى جزء يسير من شخصية الحسن اذ كان في سلوكه وعلمه وحديثه (ض) قدوة حسنة ومثلا صالحا متميزا وقد علمنا من سيرته الطيبة أنه كان يؤثر التربية بالمثال على التربية بالمقال، وعلى كل حال لابد لنا من ذكر بعض هذه المواعظ علنا نستنير بمضامينها ونستضيء بأقباسها ونتحلى بجمالها فمن ذلك قوله: «يا ابن آدم، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا، يا ابن آدم اذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه، واذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم فيه الخ....

وقال: «عدل والله من جعلك حسيب نفسك -خذوا صفاء الدنيا وذروا كدرها، فليس الصفو ما عد كدرا ولا الكدر ماعد صفوا، دعوا ما يريبكم، إلى مالا يريبكم ظهر الجفاء وقلّت العلماء وعفت السنة وشاعت البدعة - لقد صحبت اقواما ما كانت صحبتهم الا قرة عين وجلاء الصدور... كانوا فيما احل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم الله عليكم منها...» وقال: «الناس ماداموا في عافية مستورون فاذا نزل بلاء صاروا الى حقائقهم فصار المومن الى إيمانه والمنافق الى نفاقه، اي قوم، ان نعمة الله عليكم افضل من اعمالكم، فسارعوا الى ربكم فانه ليس لمومن راحة دون الجنة ولا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همه».

وقال: «من ايقن بالخلف جاد بالعطية، وما أطال عبد الأمل الا أساء العمل ومن خاف الله اخاف منه كل شيء ومن خاف الناس اخافه الله من كل شيء».

وقال أيضا: «انكم لا تنالوا ما تحبون الا بترك ما تشتهون ولا تدركون ما تؤملون الا بالصبر على ما تكرهون».

وقال: «كان من قبلكم ارق قلوبا وأصفق ثيابا وانتم ارق منهم ثيابا وأَصْفَقُ قلوبا».

ومن حكمه قوله: «لو كان العقل يشترى لتغالى الناس في ثمنه «وقال رجل للحسن: «ان لي ابنة فمن ترى ان ازوجها له؟ قال زوجها ممن يتقي الله عز وجل فان احبها اكرمها وان ابغضها لم يظلمها».

وقال في الآخرة: «اخواننا احب الينا من اهلنا واولادنا لان اهلنا يذكروننا بالدنيا واخواننا يذكروننا بالآخرة» «وكم من أخ لك لم تلده امك».

«وانتقوا الاخوان والاصحاب والمجالس».

وقال في العقل: «لسان العاقل من وراء قلبه فاذا اراد ان يتكلم فكر فان كان له قال، وان كان عليه سكت، وقلب الجاهل من وراء لسانه».

وفي التعلم: «التعلم في الصغر كالنقش على الحجر».

وقال في الاخلاق: «لا تستقيم امانة رجل حتى يستقيم لسانه ولا يستقيم لسانه حتى يستقيم قلبه». وأَضاف أَربع من كن فيه كان كاملا و من تعلق بواحدة منهن كان من صالح قومه: دين يرشده وعقل يسدده وحسب يصونه» وفي الاخلاق يوثر عن الحسن ايضا: «مكارم الاخلاق للمومن قوة في حسن، وحزم في دين وايمان في يقين وحرص على العلم واقتصاد في النفقة وبذل في السعة، وقناعة في الفاقة ورحمة للمجهود واعطاء في حق وبر في استقامة كما أُثر عنه «اصول الشر ثلاثة الحرص والحسد والكبر، فالكبر منع ابليس من السجود لآدم والحرص اخرج آدم من الجنة والحسد حمل ابن آدم على قتل اخيه».

واختم هذه الباقة من حكم ومواعظ الحسن البصري بديباجة رسالته الى عمر بن عبد العزيز (ض) كما رواها ابن الجوزي: «اما بعد اعلم يا امير المومنين ان الدنيا دار ظعن وليست دار إقامة وانما اهبط اليها آدم من الجنة عقوبة، وقد يحسب من لا يدري ما ثواب الله انها ثواب، ومن لم يدر ما عقاب الله انها عقاب ولها في كل حين صرعة وليست صرعة كصرعةٍ، هي تهين من اكرمها وتذل من اعزها وتصرع من آثرها ولها في كل حين قتلى كالسم ياكله من لا يعرفه وفيه حتفه فالزاد فيها تركها والغنى فيها فقرها فكن يا أَمير المومنين كالمداوي جُرحَه يصبر على شدة الدَّواء مخافة طول البلاء...

وفي مطلع رسالة اخرى الى عمر بن عبد العزيز يذكر الحسن خليفة المسلمين بأهمية العدل في بناء الملك بقوله - وأَجتزئُ بديباجتها ايضا» تجنبا للإطالة - يقول الحسن (ض):

اعلم يا امير المومنين ان الله جعل الامام العادل قوام كل مظلوم ومفزع كل ملهوف الى آخر الرسالة الطويلة التي تسير في تحليل العدل متدرجة من صورة لاخرى ومستنتجة ان العدل بقدر ما هو ضروري للملك بقدر ما هو ضرروري لبناء مجتمع سليم تسوده المساواة ويعمه الرخاء، ويشمله الامن بقدر ما تشمله الطمأنينة.

على اصداء هذه المواعظ والحكم المحببة للنفوس الموقظة للضمائر والمنعشة للارواح والمعطرة للمجالس من لدن تابعي جليل مؤسس مدرسة فقهية ومدرسة تفسير لكتاب الله ومحدث كبير اجدني متحيزا الى صياغة خاتمة لهذا العرض الوجيز في سطوره العميق في محتواه ومضمونه قائلا: «ان شخصية الحسن البصري ذات ابعاد متعددة وقد ارتأيت الاقتصار على تحليل بعضها باقتضاب كبير كماالمحت الى ذلك في بداية العرض فتدرجت من دراسة شخصية الحسن الخلقية والخلقية الى شخصيته العلمية ثم الى شخصيته كمتصوف ورائد كبير للمواعظ والحكم وكما رأينا في هذه العجالة فشخصية الحسن البصري قد اغنت عصرها بقدر ما اثرت العصور اللاحقة لها حيث لا يزال اشعاع معارفها وعلومها ممتدا حتى عصرنا هذا ينهل منه العلماء والباحثون فيجدون فيه ما يشفي الغليل وما يكون موضوعات غنية للدراسة والتحليل، وعسى ان اكون قد وفقت فيما آملت تبليغه اليكم عن شخصية الحسن البصري في الحدود التي رسمتها للعرض تاركا المجال لبقية الاخوان الباحثين كي يدلوا بدلوهم في معالجة الجوانب الاخرى لهذه الشخصية الفذة. والله الموفق للصواب والهادي الى سواء السبيل.